

٢ - أبو العيناء

بقلم محمود محمود خليل

تحدثت في مقالتي السابق عن إسرائف أبي العيناء في هجاء الناس ، حتى لم يسلم منه أحد من عظيم أو سوقة ، وقات إن هناك عوامل أثرت في حياته ، حتى جعلته سليط اللسان وقد أن أن أحدثت عن تلك العوامل :

(١) الورانة وقد تعرضت لها فيما سبق بمحدث مستفيض ، فلا حاجة بي الآن إلى تكرار القول فيها
(٢) نشأته فقيراً ، وطلما كان الفقر وهو مثير الأضغان والأحزان منبهاً للتبوغ والذكاء ، ونجد فقره هذا اضطره فيما بعد إلى الارتحال من منبت نشأته وهو البصرة إلى بغداد طلباً لمطايا الخلفاء والوزراء ، وكل أحاديثه مع الكبراء تنبئنا بفقره المدقع ، فقد دخل مرة على عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير فضمه إليه ، فقال له أنا لي ضم الكفاية أحوج مني إلى ضم اليدين . وقال له مرة أنا ملك مذبذب الظاهر موجود الباطن كما قال أبو الطيب المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها لي بما أنا بك منه عسود
وقال لعبيد الله بن يحيى : مسنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا الحمد والشكر ، وأنت لا يخيب عنده حر

وسواء كان هذا الكلام منه من أساليب الاستجداء التي اشتهر به أو من شدة الحاجة كما يقول ، فقد عاش أبو العيناء في حياته كلها سواء منها الدة التي قضها في البصرة أو الدة التي عاشها في بغداد في ضنك من العيش وشدة ، وتلك حياة كثير من الأدباء والكتّاب في عصره ، حتى كان الانتساب إلى الأدب طالع سوء على محترفيه ، اللهم إلا نفرأ قليلاً من الأدباء الذين أتاح لهم القدر أن يصلوا إلى مرتبة الوزارة أو القضاء ،

وغفلت عنهم عين الزمان كما يقولون ، كالفضل بن سهل وأخيه الحسن والفضل بن الربيع وابن الزيات ويحيى بن أكرم وأحمد ابن أبي دؤاد وغيرهم ، وما عدا هؤلاء فكانت حياتهم تتوقف على المطايا التي ينفحهم بها أرباب المناصب في الدولة ؛ وكثيراً ما كانت تضيق أمامهم سبيل العيش ، وتضطرم الفاقة إلى الاستكانة والنلة ، ولا سيما إذا راعينا رجلاً كأبي العيناء وهو مكفوف البصر ، رتبنا لحاله التي كان فيها ، وانتحلنا له عذراً في اشتطالته بلسانه على الكبراء ، فانه لا يملك غيره ، وهو سيفه الوحيد الذي كان يناضل به في حياته عن عيش الكفاف الذي كان يبتنيه في دنياه كما يقول ذلك لعبيد الله بن سليمان

(٣) وثالث العوامل التي غيرت مجرى حياته فقد بصره ، ولم يحدثنا الرواة أحصل له ذلك الحادث في حياته البصرية أم في حياته البمدادية ، وإن أرجح أن ذلك كان في حياته البصرية قبل أن ينتقل إلى بغداد ، فان أحاديثه جميعها التي نقلت عنه وهو يبغداد تنبئنا أنه كان أعشى يقوده غلامه

ويظهر أن هذا الحادث قد أثر فيه تأثيراً كبيراً فجعله ساخطاً على الحياة ، يتناول الناس بقوارص الكلم . قال له التوكل : لا تكثر الرقيمة في الناس ، قال : إن لي في بصري لشغلاً عن الرقيمة فيهم ، قال ذلك أشد لحيفك في أهل العافية . فانظر إلى حيفه في أهل العافية الذي يذكره له التوكل ، أما كان هذا أثراً من آثار فقد بصره ؟ وشكا مرة إلى صديق له سوء الحال وقد البصر ، فقال له اشكر فان الله قد رزقك الاسلام والعافية . قال : أجل ولكن بينهما جوتا يقلق الكبد ، ويفقد الرشد

لم يتخذ أبو العيناء سخطه على الحياة مذهباً فلسفياً له كما اتخذ شاعر المرة من بعده ، ولم يؤد به هذا السخط إلى الزرد والتشف كما فعل ذلك أبو العلاء ، وإنما كان سخطه مقصوداً على حزنه العميق الذي خالجه فؤاده لفقد بصره

صفاته وأروار حياته :

إذا فقد اجتمعت عوامل ثلاثة أثرت في حياته : الورانة والفقر وفقد البصر ، حتى جعلته سليط اللسان حاضر البديهة متوقد

الدكاء ؛ ولقد تزود في حياته البصرية من آثار الوسط الذي كان يعيش فيه بما يصلح لمجالس الملوك والأمراء ومناذمتهم بأحاديث وطرف ونوادير ، ثم رحل إلى بغداد بعد أن ضاقت به سبل العيش في البصرة ؛ ولقد ذهب للمتوكل حينما سأله عنها فقال : من أين أنت ؟ قال من البصرة . قال له : فما تقول فيها ؟ قال : ماؤها أجاج ، وحرها عذاب ، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم

تزود بتلك الرواية الواسعة واشتهر مع هذا بالجواب السمكت والمراسلات العجيبة . والجواب السريع والطبع الفكه والحجة الداحضة ، والبديهة المتوقدة . فكانت تلك المظاهر معينة له على الحياة التي أقدم عليها ببغداد . فمن ذلك أن بعض الرؤساء قال له : يا أبا العيناء ، لومت لرقص الناس طرباً ومروراً ، فقال بديهة : أردت مذمتي فأجبت مدحى محمد الله ذلك لا بمحمدك فلائك وانفقاً أبداً بمدد فقد يأتي القضاء بغير عمدك

ثم قال : أجل . الناس قد ذهبوا فلو رأني الموقى لطربوا لدخول مثل عليهم ، وحلول عقلي لسيهم ، ووصول فضلي إليهم ، فما زال الموقى يبطونكم ويرحمونني بكم . وخاصم أبو العيناء يوماً علويًا فقال له العلوي : تخاصمني وأنت تقول كل يوم : اللهم صل على محمد وآل محمد ، قال لكي أقول الطيبين الطاهرين ولست منهم . ووقف عليه يوماً رجل من العامة فلما أحس به قال من هذا ؟ قال رجل من بني آدم ، فقال مرحباً بك ، أطل الله بقاءك ، ما كنت أظن هذا النسل إلا تند انقطع . ولقيه بعض أصحابه في السحر بفعل يعجب من بكوره ، فقال له : أراك تشركني في الفعل وتفردني في التعجب ، وقال له المتوكل : إبراهيم بن نوح النصراني واجد عليك . فقال : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قال إن جماعة من الكتاب يلومونك . فقال : — إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً على لسانها وغير هذه الأحاديث كثير تمتطيع أن يقرأها في كتب الأدب . وتلك البديهة الوقادة والأجوبة المسكتة هي التي جعلت الحصري صاحب زهر الآداب يقول : كان أبو العيناء أحد الناس خاطرًا وأحضرهم فادرة ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً .

ولقد كان أبو العيناء يجالس في حياته البغدادية الخلفاء والكبراء فيطرقهم بأحاديثه وفكاهاته ، فكان سلوة لهم في مجالسهم وزينة في محاضرم على ما فيه من حدة اللسان

انتقل أبو العيناء إذا من البصرة إلى بغداد بعد أن تمت له الثقافة التي أرادها ، والبلاغة العكاظية التي امتاز بها ، وتلك حال كان يشترك معه فيها كثير من أدباء عصره ، إذ كانت بغداد مركز الخلافة الإسلامية يرحل إليها الأدباء والعلماء ، ويتفقون فيها - صلات الملوك والأمراء ، وقد يصل بعضهم إلى أن يرتب له الخليفة من بيت المال رزقاً يجري عليه . ويظهر أن أبا العيناء كان من أولئك الفرع كما يدل عليه أحاديثه ولا سيما إذا لاحظنا أنه من موالى الخلفاء العباسيين ، فكان بلا ريب له دالة عليهم جعلته في مأمن من تلك الحزازات التي كانت في صدور كثير من الحاشية ، والتي سببها أبو العيناء بزيادة لسانه ، وتطاوله على أعراض الناس

هياته البغدادية :

يقول الرواة إن أبا العيناء ولد في آخر المائة الثانية وتوفي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ فمن ثم يكون قد أثلته خلافة المأمون والمتصم والرائق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمرتز والمهتدي والمعتمد وصدر من خلافة المعتض بالله الذي تولى سنة ٢٧٩ وتوفي سنة ٢٨٩ هـ . ولقد كانت الحياة البغدادية في عصر أبي العيناء كلها ترف ولذة ، يسودها الجون والخلاعة ، ويروج فيها العيش والهو ، وقد روى لنا المؤلفون كثيرًا من مجالس لهوم ومناذمتهم على الشراب ، ومساجلات الشعراء في خلواتهم ، وأحاديث المجان في طربهم ، وإنى أعتقد أن الخليفة الذي تمتع بعلاقات الحياة ، وأقال نفسه ما تبنتها حقاً ، من خلفاء العباسيين هو المتوكل على الله ، فهو أول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته ، فأسرف في بناء القصور ، وعكف على الشراب ولم ينال بالهوم^(١) ، ولقد جنى ثمرة رفاهية الدولة ، وإن شئت فقل إن الدولة قد بلغت في أيامه ذروة العظمة ، وكان لا بد لها من بعه أن تضعف حتى تنمحى ، ولكل شيء إذا ما تم نقصان . ولقد

(١) نعتقد أن الأمين لم يتبع حقاً لخلاف الذي كان بينه وبين أخيه المأمون

سوقية لم تنشر

مراقب الصحف بالأستانة

للغفور له أحمد شوقي بك

لنا رقيب كان ما أثقله الحد لله الذي رحله
لو ابتلى الله به عاشقاً مات به لا بالجوى والولة
لو دام للصحف ودامت له لم تنج منه الصحف للنزله
إذا رأى الباطل غالى به وإن بدا الحق له أبطله
لوخال « بسم الله » في مصحف تفضب « تحسيناً »^(١) بحا البسمله
وعزة الله بلا « عزت »^(٢) لا تنفع القارى ولا خردله
جرائد الترك على عهد كانت بلا شأت ولا منزله
إن تذكر الخنجر لفظاً تُصب من شدة الذعر به مقتله
وإن تصف قبيلة لم ينم من هول ذكرى حادث القبله
الشر بالشر نيا قوم لا إثم إذا راقبتو منزله
فخاصروا الأبواب واستوقفوا من أخرج الزاد ومن أدخله
إن كان في السلّة تقاحة ضموا له موضعها حتظه
أوجي « بالشرشر »^(٣) له فاملأوا

مكائنها من علقم جردله
أواشهى الأبيض من ملبس قولوا له الأسود ما أجمله
ذلك يا قوم جزاء امرئ كم غير الحق وكم بدله

(١) تحسين باشا من ذرى النفوذ

(٢) عزت باشا « « «

(٣) عين مدينة سيامها حلوة صبية

مجموعات الرسالة

من مجموعة السنة الأولى مجلة ٥٠ قرشاً عدا أجرة البريد
من مجموعة السنة الثانية (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد الخارج ١٥ قرشاً

حدثنا التاريخ أنه قتل في قصره ، وأن الأمور من بعده اضطربت
اضطراباً شديداً بسبب المول المهادم الذي أوجده المتصم وهو
الجنود الأتراك ، ولم يظهر استيادهم وشرهم حتى بلغت الأمور
غايتها ثم ظهر الفساد بمد عصر التوكل

اتصل أبو العيناء بالتوكل اتصالاً شديداً ، وسنملم إلى أى
حد أثر فيه هذا الاتصال ، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على التوكل
وإنما اتصل بغيره كما اتصل به ، ولكن التوكل هو الذى رفع له
الحجاب ، وجعل يصنى لأحاديثه ، ولقد بهره منه تلك البديهة
الحاضرة ، وذلك الذكاء الوقاد ، حتى رأيناه يمزج ممة في كثير
من مجالسه ، ويرفع الكلفة بينه وبينه

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد
كان الخليفة المأمون على رأس الدولة فاتصل به وعرف وزيره
الحسن بن سهل وأخذ منهما الصلات والعطايا ، واقد أثر ذلك
المعروف في نفسه حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل : والله
لئن أتعب المادحين ، لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أصيب
بموت الأمام ، وخرست لفقده الأقلام . وخبر آخر قال أبو العيناء :
حصلت لى ضيقة شديدة فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم فقال
إن أمير المؤمنين للمأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص فهل لك فى
الحضور ؟ قلت نعم ومضيت معه ، فلما دخلنا أجلسه وأجلسنى ثم
قال يا أبا العيناء بالآفة والحبة ما التى جاء بك فى هذه الساعة ؟
فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم أكن لى أسباب أعيش بها فى الملاك أخلاق هى السبب
فقال لفلانم : أنظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ،
فقال بقية من مال ، قال فادفع لهنها مائة ألف وابست له بمثلها فى
كل شهر . فلما كان بمد أحد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه
أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ، فقال له بعض أولاده يا أبتاه
مد ذهب العين ماذا ينفع البكاء . فقال :

شيثان لو بكت الدعاء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم ييلنا العشار من حقيهما فقد ألشباب وفرقة الأحباب
(تبع)

محمد محمد مهدي